الظواهر اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم –ظاهرة الترادف أنموذجا –

Linguistic phenomena and their impact on the interpretation of the Holy Quran-The phenomenon of synonymy as a model-

***د.منتصر بلحاج**

مختبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي إلى نهاية القرن العشرين.

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، (الجزائر)، mountassir.belhadj@univ-mosta.dz

تاريخ الاستلام: 2021/07/10 تاريخ القبول: 2021/12/19 تاريخ النشر: 2022/09/28

ملخص: تتجلى عظمة اللغة العربية في تعدد وترادف تراكيبها اللفظية النحوية والبلاغية، وهذا ناشئ عن تعدد مشارب نشأتها في مختلف القبائل العربية على اختلاف لهجاتها ومعاني بعض الألفاظ فيما بينها. وكل هذا تجلى بوضوح أثره على تعدد معاني بعض الألفاظ لدلالات آي الخطاب القرآني عند المفسرين.

إذ يعد نزول الوحي نقطة تحول في مجال تنقية اللغة العربية مما علق بها من شوائب الجاهلية وبدايات القرون الأولى من صدر الإسلام في صرف بعض المعاني لبعض الألفاظ تعصبا لرأي أو نصرة لفكر أو مذهب معين.

كلمات مفتاحية: المشترك اللفظي، القرآن، دلالة، الترادف، التقارب في المعنى.

Abstract: The greatness of the Arabic language is manifested in the multiplicity synonymy of its grammatical and rhetorical structures, and this stems from the multiplicity of its origins in the various Arab tribes despite their different dialects and the meanings of some words among them. And all of this was clearly manifested in its impact on the multiplicity of meanings of some words for the meanings of the Qur'anic discourse among the commentators.

as the revelation of the revelation is considered a turning point in the field of purification of the Arabic language due to the impurities of the pre-Islamic era and the beginnings of the first centuries of the early days of Islam in diverting some of the meanings of some of the words into fanaticism for an opinion or support for a particular ideology or doctrine.

Keywords: verbal joint; the Qur'an; semantics; synonymy; convergence in meaning

***المؤلف المرسل**: منتصر بلحاج **الإيميل**: mountassir.belhadj@univ-mosta.dz

1. مقدمة:

حظي القرآن الكريم بتفاسير عدّة منذ البدايات الأولى لنزوله، وما إن يطالعنا قرن إلا وجدنا تفسيرات عدّة جعلت أصل اجتهادها معتمد فيه على الصّحيح من المنقولات والمأثورات الدّينية ومصادر اللّغة العربية بمختلف تعدّد ألفاظها وظواهرها اللّغوية التي ثبتت لها بالنّقل المتواتر عبر تاريخها الطّويل، وهو الأمر نفسه الذي يجعل من القرآن الكريم صالحًا لكل زمان ومكان، وهذا ما ولّد لدينا إشكالية نتساءل من خلالها: هل هناك تصادم أم توافق وانسجام وتنوع في المعنى واتساع له في تعدد هذه الدّلالات ؟.وذلك في محاولة منا كي نقف على أثر هذه الظّواهر اللّغوية على المعنى في تفسير القرآن الكريم عامّة وظاهرة التّرادف كنموذج على وجه الخصوص في تعدد مذاهب التفسير.

2. الظّاهرة اللّغوية وتعامل المفسرين معها:

إن أساس التّفكير اللغوي يتمّ وفق القاعدة التي نشأت وتفرعت عنها معظم التّفاسير في استنباط المعاني والدّلالات وفق أسس مقصودة ابتداء، يراعى فيها صفاء اللّغة من المصطلحات الدّخيلة على العربية، والتي تحول دون فصاحتها وبلاغتها المتعارف عليها بين أرباب اللّغة والبيان، ولقد حاز علماء العربية قديما قصب السّبق ونبل الشّرف، بمؤلفات عظام رعوا فيها كثرة

هذه الظواهر اللّغوية وتعدّدها وأثرها على فهم معاني كتاب الله تعالى، فكتب ابن قتيبة (ت 276هـ) كتابا قيّما في هذا المجال أسماه بـ – أدب الكاتب– قال في أول عنوان منه "معرفة ما يضعُهُ النَّاسُ في غيرِ موضِعِه... والعرب تسمِّي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له، أو كان منه بسببٍ "[1]

ولقد تنبه الخطّابي(ت388هـ) إلى هذه الظّواهر اللّغوية وأثرها على فهم المراد من كتاب الله تعالى، فألّف كتابا عنونه بـ: – بيان إعجاز القرآن– تعرّض فيه إلى ما يمكن به حمل المعنى في ألفاظ اللّغة العربية عند القدامى، وهو الأمر نفسه الذي جاء به الخطاب القرآني مراعيا لها في أعلى مستوياته البلاغية، الّتي من شأنها إثبات الإعجاز والكشف عن معاني بعض الألفاظ رغم تقاربها أو ترادفها، لأنّ المكون الأساسيّ الذي تقوم عليه دلالة اللّفظ إنمّا يتم " بهذه الأشياء الثّلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشّرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشدّ تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه.وأما المعاني فلا خفاءَ على ذي عقل أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتّقدم في أبوابها. والتّرقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها. وقد توجد هذه الفضائل الثّلاث على التّفرق في أنواع الكلام، فأمّا أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا."[2]

3. مفهوم الترادف

اهتمّ علماء العربيّة بكل ما يتّصل بجانب اللّفظ والمعنى، وخاصّة ألفاظ القرآن الكريم، وذلك لم لها من مزيّة عظمى في تحقيق مراد الله في أرضه، ومن بين قضايا اللّفظ(التّرادف)، إذ خصَّ له بعض العلماء كابن جنّي (ت392هـ) بابا كاملا قال فيه"باب في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني: هذا فصل من العربيِّة حسن كثير المنفعة، قوي الدّلالة على شرف هذه اللّغة. وذلك أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة، فتبحث عن أصل كل اسم منها فتجده مفضي المعنى إلى معنى صاحبه."[3]. ومهما يكن من أمر فإن قضيّة التّرادف في ألفاظ العربية يبدو أثرها جليّا على التّفسير.

وهو الأمر الّذي جعل طائفة من المفسرين يرون بتقارب المعاني والدّلالات في الخطاب القرآني، وهو منهج معتدل وسط سلكه أبو عبيدة في تفسيره مجاز القرآن بين رافض للتّرادف وقائل باتّحاد المعنى، ولقد " أَوْقَعت العربُ اللَّفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على اتَّسَاعهم في كلامهم كما زاحفوا في أجزاء الشّعر ليدلوا على أنّ الكلامَ واسعٌ عندهم وأنّ مذاهبَه لا تضيقُ عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب"[4].

وعلى هذا الأساس كان تعريف التّرادف عند علماء اللغة يأخذ أبعادا متعددة، بالنّظر إلى القول به في كلام الله تعالى .إذ"مُنْذُ بَدَأَ الرّعيل الأوّل من اللّغويين فِي جمع اللُّغَة فِي الْقرن الثَّانِي وَالثَّالِث الهجريين من الْقُرْآن الْكَرِيم والْحَدِيث الشّريف وَكَلَام الْعَرَب من شعر وخطب ورسائل بل وَمن أَفْوَاه فصحاء الْعَرَب بدءوا فِي تدوين مادتهم اللُّغَوِيَّة الَّتِي جمعوها، وسلكوا سبلا شَتَّى فِي تنظيمها، فبعضهم آثر أن يجمع الْكَلِمَات الَّتِي تدل على معنى وَاحِد فِي تأليف واحده سموهُ المترادف أَو مَا اخْتلفت

أَلْفَاظه واتّفقت معانية، وَقد وصل الْأَمر فِي جمع المترادف إِلَى أَن ظهر بِهِ التّحدى بَين الْعلمَاء"[5]، ولمزيد من التّوضيح لابد من الوقوف على تعريف التّرادف لغة واصطلاحا:

أ **لغة:**

يعرفه ابن منظور فيقول "ردف: الرّدف: ما تبع الشيء. وكل شيء تبع شيئا، فهو ردفه، وإذا تتابع شيء خلف شيء، فهو التّرادف، والجمع الردافى ... فأمدّهم الله بألف من الملائكة مردفين أي متتابعين يردف بعضهم بعضا."[6]

يأتي لفظ التّرادف عند اللّغوين بمعنى: التّتابع والتّشارك.

ب **اصطلاحا:**

بعد تتبّع مؤلفات القدامى لم نجد اتفاقا في تعريف التّرادف، وذلك أنه أخذ بعدا مفاهيميا عريضا بين قائل به ومنكر له، ولعلّ أوّل مايلفت انتباهنا إشارة سيبويه (ت: 180هـ)إلى ظاهرة التّرادف حين تقسيم لعلاقة الألفاظ بمعانيها قائلا: "هذا باب اللّفظ للمعاني أعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللّفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللّفظين والمعنى واحد، واتفاق اللّفظين واختلاف المعنيين... فاختلاف اللّفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلس وذهب. واختلاف اللّفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق. واتفاق اللّفظين والمعنى مختلف قولك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضّالة. وأشباه هذا كثير."[7] غير أنّ هذا الباب دقيق المسلك، خاصة ما تعلق بتفسير ما تشارك معناه وتقارب، مع اختلاف لفظه في كتاب الله تعالى .

4. ظاهرة التّرادف وأثرها في المعنى عند المفسرين

إنّ المتأمل في الخطاب القرآني يرى أنّه لابد من وجود علاقة بين اللّفظ والمعنى، إما التزاما أو اقتضاء أو إشارة أودلالة مباشرة وفق آلية الرّبط التي تنتظم من خلالها الجمل والعبارات وفق سياق معين، ومن ذلك مثلا ظاهرة التّرادف أو المشترك اللّفظي ونأخذ مثلا في ذلك:

أكل – افترس

تحدّث الخطاب القرآني بإسهاب طويل عن قصة يوسف مع إخوته، واستعمل فيها من المعاني لبعض الألفاظ ما يحقق المعنى المقصود الذي جرت به أحداث هذه القصة، حيث استعمل الشارع الحكيم في الآية الكريمة لفظة أكله الذّئب بدلا من افترسه، وهذا ما تفطن له الخطّابي من خلال عملية الرّبط بين اللّفظ ومعناه في سياقه، معللا هذه الظّاهرة اللّغوية في الاستبدال اللّفظي بفعل أكل بدلا من افترس، لأنّ إخوة يوسف " إنّما ادعوا على الذّئب أنّه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلًا ولا عظماً، وذلك أنّهم خافوا مطالبة أبيهم إيَّاه بأثر باقٍ منه يشهد بصحّة ما ذكروه، فادّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، لم يصح على هذا أن يعبر عنه إلاَّ بالأكل؛ على أنّ لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذّئب وغيره من السّباع.

وحكى ابن السّكيت في ألفاظ العرب قولهم:" أكل الذِّئب الشّاة فما ترك منها تامورا"[8] ، وهذا من إقحام المعنى على اللّفظ وهو غير مقبول عقلا، فلا يمكن أن يتصور أنّه أكل حتى العظم والصّوف، وإنّما أتى هذا التّصوير باستعمال هذا اللّفظ لأجل المبالغة والتّأكيد.

1.3 إقحام المعنى على اللفظ لغرض معين

وفي هذا نرى أنّ الخطّابي أرجع أصل المعنى لفعل أكل للتّراث العربي باستشهاده عمّا أورده ابن السّكيت،كما بيّنا سابقا، وبالتّالي تحدث هذه الظّاهرة اللّغوية أثرا بليغا في معنى الآية من خلال الرّبط بين المعنى واللّفظ غير المناسب لها في هذا السّياق الخاصّ، لأجل إخفاء أيّ أثر يكون سببا في مطالبة الأب لأبنائه بدلائل هذا الأثر عليه، وذلك أنّ أيّ لفظ في اللّغة العربية إذا كان معناه في سياق معين لغرض معين يكون أبلغ منه لو جعل له معناه المباشر بمعزل عن السّياق.

5 التّرادف في القرآن الكريم:

الخشية – الخوف

يتوهم النّاظر للوهلة الأولى تشارك الاسمين في المعنى، بخلاف ما اشترك في اللّفظ واتّحد في المعنى كما أشار إلى ذلك السّيوطي(ت911ه) بقوله:" ويسمى الشّيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو السّيف والمهنّد والحسام... وفيها: يقال مَشَى يَمْشِي من المشْي ومَشَى إذا كَثُرت ماشيته وكذا أمْشَى لغتان فصيحتان. قال وفي التنزيل: ﴿ **أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَى آلِهَتِكُمْ** ﴾ [سورة ص، الآية 6] كأنّه دعا لهم بالنّماء. "[9]

أكدّ نفسَ المعنى الرّازي(ت395ه) مبيّنا هيمنة اللّغة العربية على اللّغات، وانفرادها بظاهرة التّرادف والتّشارك في المعنى لألفاظ متعددة قائلا:" لأنّنا لو احتجنا أن نعبر عن السّيف وأوصافه باللّغة الفارسية لما أمكننا ذَلِكَ إلاَّ باسم واحد، ونحن نذكر للسّيف بالعربيّة صفات كثيرةً، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسمّاة بالأسماء المترادفة."[10]

وعلى هذا ينبغي الحيطة والحذر في توجيه دلالة الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**﴾من [سورة الرعد، الآية 21].وهذا ما تفطّن له السّيوطي من أنّ هناك "قاعدة في الألفاظ التي يظنّ بها التّرادف وليست منه، من ذلك الخوف والخشية لا يكاد اللّغوي يفرق بينهما، ولا شكّ أنَّ الخشية أعلى منه، وهي أشدُّ الخوف فإنّها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية أيّ يابسة وهو فوات بالكلّية والخوف من ناقة خوفاء أي بها داء وهو نقص وليس بفوات ولذلك خصّت الخشية بالله في قوله تعالى: ﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**﴾ من [سورة الرعد، الآية 21].وفرّق بينهما أيضا بأنّ الخشية تكون من عظم المختشى وإن كان الخاشي قويّا والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرا يسيرا ."[11]

الكوب والإبريق والكأس

ونلاحظ الاختلاف في معاني هذه الألفاظ في القرآن الكريم، ونجد في قوله تعالى توضيحا وتوجيها لذلك:﴿**بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ**﴾[سورة االواقعة، الآية 18]، حيث ذكر الكأس في القرآن مفردا، ولم يجمع، ولم يقل (وكؤوس)، لأنّ الكأس إناء فيه شراب، فإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس، بل قدح، والقدح إذا جعل فيه الشّراب فالاعتبار للشراب، لا لإنائه، لأنّ المقصود هو المشروب[12]، أمّا بالنّسبة للأكواب فهي الأواني التي يصبّ فيها الماء، وفي "الكوب وجهان أحدهما : أنه من جنس الأقداح وهو قدح كبير وثانيهما : من جنس الكيزان ولا عروة له ولا خرطوم والإبريق له عروة وخرطوم".[13]

الوهن والضّعف

فالمتمعّن للفظتي الوهن والضّعف يرى "أنّ الضّعف ضدّ القوّة، وهو من فعل الله تعالى، كما أنّ القوّة من فعل الله تقول: خلقه الله ضعيفا، أو خلقه قويّا، وفي القرآن ﴿**وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾ من [سورة النّساء، الآية 28]، والوهن هو أن يفعل الإنسان فعل الضّعيف، تقول : وهن في الأمر يهن وهناً، وهو واهن، إذا أخذ فيه أخذ الضّعيف، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ من [سورة أل عمران، الآية 139]."[14] ولهذا رغم تقارب المعنى إلا أن التّدقيق يظل واردا في استخدامات اللّفظ في السّياق.

الشّكر والحمد

قد نلاحظ اقتراب المعنى بين اللّفظتين لكن" يكون الحمد ابتداءً بمعنى الثّناء، ولا يكون الشّكر إلا على الجزاء، تقول : حمدت زيدا، إذا أثنيت عليه في أخلاقه ومذاهبه وإن لم يكن سبق إليك منه معروف، وشكرت زيدا إذا أردت جزاءه على معروف أسداه إليك، ثم قد يكون الشكر قولا كالحمد، ويكون فعلاً في كقوله عزّ وجلّ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ من [سورة سبأ، الآية 13]. وإذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كلّ واحد منهما بضده، وذلك أنّ ضدّ الحمد الذّم، وضد الشّكر الكفران، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه، ولا يكون الشّكر إلاّ على المحبوب[15].

وهذا يدلّ على أنّ ظاهرة التّرادف لها أثرها في توجيه دلالة معنى الآية، إن لم يكن المفسّر متضلّعا في اللّغة عارفا بمسالكها وتفسيراتها وفق السّياق الذي نشأت فيه عند علماء اللّغة القدامى.

آمنّا/ أسلمنا

يرى المتصفح لكتب التّفسير أنّ المفردة القرآنية وضعت لدلالة معينة بوجه لا يمكن أن تتصف به مفردة أخرى ولو وردت في كلام البشر بنفس المعنى، يؤكد هذا قوله تعالى : ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [سورة الحجرات، الآية 14].

نلاحظ من خلال هذه الآية الكريمة أنّ الخطاب القرآني في توظيفه للمفردتين آمنّا وأسلمنا لم يستعملها في المعنى كما استعملته الأعراب، لأنّ لفظة الإيمان في هذا السّياق لا تتناسب وما استعملت من أجله في المعنى، وإنّما المناسب في هذا المقام لفظة أسلمنا.

تقتضي بلاغة القرآن في التّعبير أن لكل مقام مقال، والمقصود المراد موضّح في قوله تعالى ﴿**وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [سورة الحجرات، الآية 14].

راعنا أنظرنا

يقول تعالى﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [سورة البقرة ، الآية 104] . لو رجعنا إلى التّراث في لفظتي راعنا وأنظرنا، لوجدنا أن لفظة راعي تحمل معنى الرّعاية والحفظ والأمان، ومعنى راعنا "هو أنّ المسلمين كانوا يقولون راعنا يا رسول الله من المراعاة؛ أي أرعنا سمعك؛ أي فرغ سمعك لكلامنا"[16].

استغل اليهود مدلول اللّفظ عند المسلمين حتى لا يشعر النّبي صلى الله عليه وسلم، والصّحابة بقبح المعنى الذي يريدونه في لغتهم العبرية وهي الشّرير، فلم يستصغ الخطاب القرآني هذا اللفظ و ما يحمله من معنى يليق في خطابات المسلمين فيما

بينهم، وأمرهم باستبدال اللّفظ بـ: أنظرنا أي انتظرنا نسمعك كلامنا.وفي هذا إشارة إلى أن ظاهرة التّرادف لها أثر قوي في توجيه المعنى خاصة في الذّكر الحكيم، وأنّ لكل لفظ مدلوله الدّقيق ولو كان متقاربا مع غيره فالتّدقيق يقتضي تحديد الفروقات حتى في المعاني المتقاربة.

ويوضّح الجرجاني في حديثه عن التّرادف" توالي الألفاظ المفردة الدّالة على شيء واحد باعتبار التّرادف، يطلق على معنيين أحدهما الإتحاد في الصّدق، والثّاني الاتحاد في المفهوم ومن نظر إلى الأوّل فرق بينهما، ومن نظر إلى الثّاني لم يفرق بينهما".[17] يتجلّى من توجيه الجرجاني ، أن مردّ الخلاف بين علماء اللغة في القول بالتّرادف من عدمه هو رؤيتهم لهذه الظّاهرة وفق هذين المنظورين ، ونمثل لذلك بما ورد في القرآن الكريم بين هذين المعنيين:

تبديل الشّيء/ الإتيان بغيره

من خلال التّمعن في اللّفظتين والتّدقيق في المعنى الذي ستأخذه كلّ لفظة في السّياق القرآني نلمس الاختلاف رغم تقارب المعنى بينهما" فالفرق بين تبديل الشّيء والإتيان بغيره، أنّ الإتيان يغيره لا يقتضي رفعه بل يجوز بقاؤه معه، وتبديله لا يكون إلاّ برفعه ووضع آخر مكانه، ولو كان تبديله والإتيان بغيره سواء، لم يكن لقوله تعالى: ﴿ **ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ**﴾ [سورة يونس، الآية 15] ."[18] فالفرق واضح الاستخدام بين التغيير والتّبديل.

بلى ونعم

قد لانلمس اختلافا بين اللّفظتين لكنّ الفرق واضح أثناء الاستعمال، فالجواب على الاستفهام بحرف النفي كقوله عزّ وجل: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ**﴾[سورة الأعراف ، الآية 172]. وأمّا نعم فهو جواب عن الاستفهام نحو قوله نعالى﴿**فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ**﴾[سورة الأعراف ، الآية 44].[19]

6 ظاهرة الترادف في الخطاب القرآني بين القائل بها والمنكر لها

إنّ الصّحيح من أقوال العلماء يؤكّد البعد المفاهيمي العميق في القرآن الكريم لظاهرة التّرادف بين قائل به ومنكر له، كما يتبيّن لنا أنه لا وجود له في القرآن الكريم بالمعنى الحقيقي، وذلك لاختلاف معاني ألفاظه ضمن سياقاته المتعددة في جوانب كثيرة كقوله تعالى﴿ **الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾[سورة هود، الآية 1] ؛ أي رصّفت ترصيفًا ونظمت تنظيما متقنا لا خلل فيها ولا في تركيبها ولا معانيها وقوله تعالى فصلت؛ أيّ ما تحمله من أحكام وشرائع.[20] وهي" محكمة في لفظها، مفصّلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى، هذا ما روي عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير، وقوله﴿**مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾[سورة هود، الآية 1] ؛ أي: من عند الله الحكيم في أقواله، وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور.[21]

ويؤكّد عدم وجود التّرادف في القرآن الكريم بالمفهوم المتعارف عليه عند علماء اللّغة ،إذ نجد ذلك في قول المفسّر السّعدي توجيها وتفسيرا لهذه الآية حيث " وصف آيات القرآن بأنها فصّلت يستلزم التفريق بين كلّ شيء "[22].

ونجد الأمر نفسه عند علماء اللّغة أيام عصور نّهضة اللّسان العربي في حرصهم الشّديد على دقة انتقاء الألفاظ للمعاني، ووضعها في مقامها المناسب " ومن هؤلاء أبو عثمان الجاحظ، وأبو الهلال العسكري(الفروق في اللغة)، وابن قتيبة(أدب الكاتب)، والثّعالبي (فقه اللّغة)، وعلى هذا نحن مطالبون بشيء يقال له التّحرر من آفات عصور الانحطاط في ميدان اللّغة واستعمال اللّفظ الخاص والعام كلاّ في موضعه اللائق به ومكانه المناسب ."[23]

7 ظاهرة الترادف في القراءات القرآنية :

شغلت ظاهرة التّرادف بين القراءات القرآنية العلماء قديما وحديثا، وهو الأمر الذي شكّل هاجس البحث في حقل الدّراسات القرآنية للوصول إلى أصل اللّفظ وما يتركب منه بناؤه،، وقد أردنا أن نبيّن بعض الألفاظ التي تعددت فيها القراءات القرآنية لنبيّن أوجه الاتّفاق والاختلاف بينها، ومن خلالها يمكن أن نجعلها عيّنة في توجيه تفسير الآيات ومثيلاتها.ونوضح ذلك في الأمثلة الآتية:

الصّوف – العهن

يقول تعالى: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ** ﴾ من [سورة القارعة، الآية 5] . وهي قراءة الجمهور أمّا عبد الله بن مسعود فقرأ " وتكون الجبال كالصّوف المنفوش.

نلمس من خلال الرّجوع إلى معاجم اللغة أنّ التّرادف بين اسمي الصّوف والعهن موجود إجماعا، ومن هنا يمكن القول أن القراءات باختلاف ألفاظها المترادفة هي وجه من وجوه تفسير القرآن بالقرآن، فاللّفظ المجهول عند قبيلة معروف عند أخرى، وبالتّالي بكون الترادف اللّفظي ذو أثر بيّن على التّفسير، فالصّوف والعهن كلّ منهما صوف وعهن والقطعة منه عهنة وألقى الكلام على عواهنه: لم يتدبره"[24] فتعدّد القراءات القرآنية يوحي بتعدّد الألفاظ للمعاني المشتركة في عمومها ، المفترقة في بعض جزئياتها وخصائصها، وفق سياقاتها المستعملة فيها، ومن ذلك " وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب. واختصّ بالتّأليف في هذا المنحى الثعالبي وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه. فليس معرفة الوضع الأول بكاف في الترتيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك."[25]

وعلى هذا تكون خلاصة القول :أن التّرادف موجود، ولكن ليس بالمفهوم العام المتداول بين ألسنة النّاس، إذ الفروقات بين معاني الألفاظ هي من خصائص التّوظيف في الخطاب القرآني، واكتشاف هذه الدقائق والميزات بين الألفاظ المترادفة هو مايعطي سرّ إعجاز مفردات القرآن الكريم ، ويجعله في نفس الوقت صالحا لكل زمان ومكان. "وَلذَا نفى الْعلمَاء وجود الترادف التَّام فِي الْقُرْآن لِأَنَّهُ قمة الفصاحة وَالْبَيَان فَكل لَفْظَة تُوضَع مَكَانهَا فمثلا كلمة جلس تذكر فِي مَكَانهَا ولكلمة قعد فِي مَكَانها مَعَ أَنّ بعض اللّغويين قد يذكرهَا فِي بَاب الترادف وَكَذَلِكَ كلمتى أَتَى جَاءَ وَكَذَلِكَ كلمتى السغب والجُوع وَغير ذَلِك مِمَّا يطول بِنَا الحَدِيث عِنْد ذكره"[26] .فالتفريق بين معاني المترادف من الألفاظ صار ضرورة لكل مفسر يسعى لبلوغ ماتحمله الآية من معنى جليل يتوافق وقصدية المولى تعالى من خطابه.

8 خاتمة:

في خاتمة بحثنا يتجلّى لنا سرّ إعجاز الخطاب القرآني وسموّ بلاغة على سائر البلاغات، فما يتحد معناه في خطابات البشر ، يتقارب معناه ويتميّز في القرآن الكريم، فظاهرة التّرادف فيه أخذت مفاهيم عدّة وخصائص ومميزات نجملها على شكل نتائج للبحث فيما يأتي:

- توظيف الخطاب القرآني بعض المعاني وإقحامها على بعض الألفاظ في سياق معيّن، هو آلية من آليات تحقيق حجاجية الآية الكريمة، وخدمة المعنى العام المراد بيانه منها.

- التّرادف في القرآن الكريم، وجوده ليس بالمعنى العام المتداول عند أهل اللغة، وإنما ترادف يقتضي التفاوت في المعاني وتحقيق الدلالة المرجوّة من معنى الآية.

- تقارب المعنى في اللّفظ المشترك، هو المنهج الأوسط الذي سار عليه معظم المفسّرين في حمل دلالات المترادف من لفظ القرآن الكريم، كما أن القول باتحاد المعنى فيه، هو حدّ لمدلولات الخطاب القرآني وسمو بلاغته.

- اختلاف علماء اللغة في القول بظاهرة التّرادف من عدمه في كلام الله تعالى، هو احترازهم من مزالق التّفسير في ذلك.

- توجيه القرآن الكريم لبعض معاني الألفاظ المترادفة، يوحي بسموّ إعجازه وبلاغة خطابه، وبيان أسرار المعاني التي ينطوي عليها.

- تعدّد القراءات القرآنية، ووجود الترادف فيما بينها، هو وجه من وجوه تفسير القرآن بالقرآن، وبذا يكون البحث عن معنى اللفظ في قراءة أخرى مقدّم على التفسير المباشر لها بمعزل عن البحث عن معناهاولفظها في قراءات متواترة أخرى.

9. مراجع البحث

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1. أبو الفتح عثمان بن جني:الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة ،د.س ،ج: 2.
2. أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن الكثير القريشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (ابن كثير)، دار ابن حزم للطباعة والّنشر والتّوزيع، ط:1، 1430هـ/ 2000م.
3. أبو الهلال العسكري: الفروق في اللّغة، تح: جمال عبد الغني مدغمش، ط:1، 1422هـ/ 1997م.
4. أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي : بيان إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: 3، 1976م.
5. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرّازي: مفاتيح الغيب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ،ج29
6. أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري : مجاز القرآن، تح: محمد فواد سزگين،مكتبة الخانجى، القاهرة، 1381 هـ،ج:2.
7. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: أدب الكاتب (أو) أدب الكتّاب، تح : محمد الدالي، مؤسسة الرّسالة.
8. أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: الصّاحبي في فقه اللّغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، محمد علي بيضون،ط:1، 1418هـ/1997م.
9. أحمد بن مصطفى اللَّبَابِيدي الدمشقي: اللّطائف في اللّغة، معجم أسماء الأشياء، دار الفضيلة، القاهرة.
10. أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم : عجم القراءات القرآنية ، مطبوعات جامعة الكويت، ط1، 1985م، ج8.
11. جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط:5، 1423هـ-2003، ج2.
12. الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، البغوي الشافعي: معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي، تح: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، الناشر، دار طيبة، ط4، 1417هـ _1997م، ج1.
13. الرّوماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني، تح: محمد خلف أحمد، حمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.
14. الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر، دار التّراث .

15. عبد الرحمان بن ناصر السعدي الحسان لتفسير القرآن، دار رشد 1429هـ _1999م.

16. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدّين السّيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974 م،ج:2.

17. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1418هـ 1998م، ج:1.

18. عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت،ط:2، 1408 هـ / 1988 م.

19. علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني(ت 816هـ): العنوان، تح جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1: 1403 هـ/ 1983م.

20. عمار ساسي : نظرة لغوية في إشكالية الترادف بين القدامى والمحدثين، مجلة حوليات، جامعة الجزائر، مج11، ع:7، 1998م.

21. عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط:3، 1408 هـ / 1988 م.

22. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدّين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت،ط:3، 1414 هـ،ج: 9، مادة:(ف.ر.د).

- **المقالات**

23. عمار ساسي : نظرة لغوية في إشكالية الترادف بين القدامى والمحدثين، مجلة حوليات، جامعة الجزائر، مج11، ع:7، 1998.

10. الإحالات:

[1] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: 276هـ): أدب الكاتب (أو) أدب الكتّاب، تح : محمد الدالي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ص21.

[2] أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي ، بيان إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: 3، 1976م، ص:27.

[3] أبو الفتح عثمان بن جني:الخصائص،الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة،ج 2، ص:115.

[4] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور،دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ 1998م، ج:1، ص:315.

[5] أحمد بن مصطفى اللَّبَابِيدي الدمشقي، اللّطائف في اللّغة، معجم أسماء الأشياء، دار الفضيلة، القاهرة، ص:13.

[6] محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدّين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت،ط:3، 1414 هـ،ج: 9،ص:11/.114، مادة:(ف.ر.د).

[7] عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط:3، 1408 هـ / 1988 م، ص:24.

[8]أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي ، بيان إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام،ص:41 .

[9] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدّين السّيوطي (ت: 911هـ)،المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1418هـ/ 1998م، ج1، ص:293/ 292.

[10] أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، الصّاحبي في فقه اللّغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، محمد علي بيضون،ط:1، 1418هـ/1997م، ص:19.

[11]عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدّين السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974 م،ج:2. ص:364.

[12] أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: 794هـ) ، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج: 4، دار التراث، ص:20.

[13] أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرّازي: مفاتيح الغيب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ،ج29، ص393.

[14]أبو الهلال العسكري، الفروق في اللّغة، تح: جمال عبد الغني مدغمش، ط:1، 1422هـ/ 1997م، ص: 182.

[15] الرّماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني، تح: محمد خلف أحمد، حمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ص:30.

[16]الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، البغوي الشافعي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي، تح: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، الناشر، دار طيبة، ط4، 1417هـ_1997م، ج1، ص:133.

[17] علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني(ت 816هـ): العنوان، تح جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1: هـ1403هـ/ 1983م، ص 56.

[18] أبو الهلال العسكري: الفروق في اللّغة، ص421.

[19] ينظر: الرّماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني، ص:33.

[20] جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط:5، 1423هـ- 2003، ج2، ص 519.

[21]أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن الكثير القريشي الدمشقي،تفسير القرآن العظيم، (ابن كثير)، دار ابن حزم للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط:1، 1430هـ/ 2000م، ص : 947.

[22] عبد الرحمان بن ناصر السعدي: الحسان لتفسير القرآن، دار رشد 1429هـ_1999م، ص: 49.

[23] عمار ساسي : نظرة لغوية في إشكالية الترادف بين القدامى والمحدثين، مجلة حوليات، جامعة الجزائر، مج11، ع:7، 1998، ص: 153/ 154.

[24] أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم : معجم القراءات القرآنية ، مطبوعات جامعة الكويت، ط1، 1985م، ج8، ص 221.

[25] عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت،ط:2، 1408 هـ / 1988 م، ص:758.

[26] أحمد بن مصطفى اللَّبَابِيدي الدمشقي: اللّطائف في اللغة، معجم أسماء الأشياء، ص:25.